

حول وحدة الوجود

فيما كتب الأستاذ دريني فريضة
للأستاذ محروف الرصافي

كتب الأستاذ دريني خشبة في العدد (٥٩١) من الرسالة مقالاً كرر فيه شتاغته السابقة لأهل وحدة الوجود عامة ، وللرصافي خاصة ، ونحن هنا لا نريد أن نقابل تلك الشتاغم بمثلاً ، وإن كنا أقدر عليها من غيرنا ، لأننا نكره النزال في حومة لا يخرج منها الغالب إلا وهو الأم من الغلوب يقول الأستاذ خشبة : « كيف تكون الكائنات مظاهر لهذا الإله المجيب الذي يقول أنصار وحدة الوجود إنه لا وجود إلا له ... أما هذه المخلوقات فهي باطل — هي وهم ... ولست أدري كيف يكون الرصافي وهماً وباطلاً . . » إلى آخر ما هنالك من أقاويل أرجف فيها

إن الأستاذ خشبة يتهم خصمه بنقيض اعتقاده ، ويحمل كلامه على ضد مراده ، ثم يؤاخذ على ذلك مؤاخذة إرذال وتشنيع ، وهذا لعمري لم يعمد في تاريخ البحث والمناظرة لأحد قبل الأستاذ

أنا لا أشك في أن الأستاذ ، لو قرأ في الصفحة ٢١ من رسائل التعليقات ، ما نقلناه عن محيي الدين بن عربي من كلامه حول ما جاء في الحديث النبوي « أصدق كلمة قالتها العرب ، قول لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) وما أؤمخناهم نحن وذكرناه هناك ، لا سحر خجلاً من قوله إن هذه المخلوقات باطل ، وإنها وهم

إن أهل وحدة الوجود ، يعطون الكائنات وجوداً لا يدركه الفناء ، لأنهم يرون وجودها ووجود الله واحداً . وهذا هو كل ما يريدون من قولهم بوحدة الوجود ، فالوجود في رأيهم واحد لا اثنين ، وهو الله ذو الوجود الكلي المطلق اللانهاي ، وما هذه الكائنات عندهم ، سوى مظاهر للوجود الكلي ،

وصور قاعة به ، كالأمواج في البحر ، فإن الموجود في البحر ، واحد وهو الماء ، وما الأمواج إلا مظهر من مظاهر الماء ، وصور قاعة به ، وليس للأمواج وجود غير وجود الماء ، ولا ريب أن وجود الأمواج حق ، لا وهم من الأرواح

والظاهر أن الذي حمل الأستاذ خشبة على جعله المخلوقات وهماً ، هو قولهم : إنه لا وجود إلا لله ، ولو افترس الأستاذ جيداً ، لأدرك أنه لا يلزم من ذلك أن تكون المخلوقات وهماً ، ولنضرب له مثلاً أوضح من أمواج البحر : هرماء مبنيا من الثلج ، فنسأل الأستاذ هل لهذا الهرم وجود غير وجود الماء ؟ كلا ! وهو مع ذلك حق ، لا وهم من الأرواح ، بل كل ما هنالك أنه غير قائم بذاته ، بل بالماء ، فهو من هذه الناحية ، يقال له باطل على طريق التشبيه أي كالباطل ، وبذلك فسر محيي الدين ابن عربي قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، إذ قال : « اعلم أن الموجودات كلها ، وإن وصفت بالبطل فهي حق من حيث الوجود ، ولكن سلطان المقام إذا غلب على صاحبه يرى ما سوى الله باطلاً ، من حيث أنه ليس له وجود من ذاته ، فحكمه حكم المدم ، وهذا معنى قوله ما سوى الله باطل ، أي كالباطل ، لأن العالم قائم بالله لا بنفسه »

ثم قال : (والعارف إذا وصل إلى مقامات القرب في بداية عرفانه ، ربما تلاشت هذه الكائنات ، وحجب عن شهودها بشهود الحق ، لا أنها زالت من الوجود بالكيفية ، ثم إذا كل عرفانه ، فإنه يشهد الحق والخلق معاً في آن واحد)

هذا ما قاله محيي الدين ، وأين هو مما يقوله الأستاذ خشبة من أن هذه المخلوقات باطل ، وإنها وهم . ولا ريب أن شهود الحق والخلق معاً في آن واحد كما قال محيي الدين ، هو كشهود الماء والهرم الثلجي معاً في آن واحد ، وهذه المرتبة عند الصوفية ، تسمى مرتبة الجمع ، كما هو مسطور في كتب التصوف ، فكما أن وجود الهرم الثلجي حق ، لا وهم ، وإن لم يكن له وجود غير وجود الماء ، كذلك وجود المخلوقات حق ، لا وهم ، وإن لم يكن لها وجود غير الوجود السبكي أو غير وجود الله ، وكما أن هذا الهرم ، مظهر من مظاهر الماء ، وصورة قاعة بالماء ، كذلك

المخلوقات كلها مظاهر للوجود السكلى ، وصورة قاعة به ، فهي كهذا الهرم ليس لها وجود غير الوجود السكلى
أليس من الغريب عند الأستاذ خشية ، أن يتهم الصوفية بضد ما يقولون ، ثم يشنع عليهم قولهم كل هذا التشنيع . وكيف جاز للأستاذ أن يتغاضى عن فصل كتيبته تحت عنوان (الحق والباطل ، في رأى أهل التصوف) وقد صرحنا فيه بأن كل ما وقع فهو حق عند أهل وحدة الوجود وأنه لا باطل عندهم إلا المحال

٢ - ومن شتائم الأستاذ خشية للرصاصي قوله : (إن الرصاصي يرى أن القرآن من تأليف محمد ، بدليل ما دأب على ذكره من قوله : قال محمد في القرآن)

فنقول : إن هذا القول قد قاله بعض المشايخ من ذوى العاهم عندنا في بغداد قبل الأستاذ خشية ، وهو يدل على أنهم يجهلون اختلاف علماء الإسلام في القرآن ، هل هو المعنى ، أو المعنى واللفظ معاً ، وأنه ذهب فريق منهم إلى أن القرآن هو المعنى القائم بذات الله ، دون الألفاظ ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك) ولم يقل على سمعك ، حتى إن الإمام أبا حنيفة أجاز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة ، ثم إن هؤلاء اختلفوا في ألفاظ القرآن لمن هي ، فمنهم من قال بأنها لرسول الله ، ومنهم من قال بأنها لجبريل ، ومنهم من قال غير ذلك كما هو مسطور في كتب العقائد الإسلامية

وأما الفريق الثانى فذهبوا إلى أن القرآن هو المعنى واللفظ معاً ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) والنطق يشمل المعنى واللفظ معاً ، وأجاب الفريق الأول بأن (هو) في قوله : (إن هو إلا وحى يوحى) ، عائد إلى القرآن ، لا إلى المصدر المفهوم من (ينطق) ، وإذا كان الأستاذ خشية لم يطلع على هذا ، فليقرأ ما كتبه الإمام السيوطى في الإتيان على الأقل

وعلى كلا القولين لسكلا الفريقين ، لا يلزم من قول الرصاصي (قال محمد في القرآن) كونه من تأليف محمد ، أما على القول

الأول فلأن التأليف يشمل المعنى واللفظ معاً ، ولا يكون لفظ فقط ، والقرآن هو المعنى الموحى من الله على قول هؤلاء ، فيكون معنى قولنا (قال محمد في القرآن) عبر محمد عن المعنى الموحى إليه من الله . وأما على القول الثانى ، فظاهر ، لأن قول محمد هو قول الله ، بدليل (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) ٣ - ومن شتائم الأستاذ خشية للرصاصي قوله : بأن الرصاصي لا يرى معنى للبعث الذى يؤمن به المسلمون وجاء به القرآن الكريم

ففقول سبحانه هذا بهتان عظيم ، إن الرصاصي إنما قال عند الكلام عن البعث : (أما مسألة بعث الموتى بأرواحهم وأجسادهم ، فلم أقف على كلام للصوفية في تخريجه على مذهبهم وتوجيهه) قال : (والذى أراه أنه معتقد صرف لا يقوم إلا بالإيمان ، وأن ليس للعقل فيه مجال ، ولا يخفى أن الإيمان بالغيب ، يتسع لأكثر منه وأبعد) قال : (ومن العبث إقامة الأدلة العقلية على أمور لا تقوم إلا بالإيمان في جميع الأديان ، وليس الدين إلا إيماناً بالغيب ، كما جاء في القرآن (يؤمنون بالغيب) فالإيمان بالغيب هو أساس الأديان كلها)

وإنما قلنا إنه ليس للعقل فيه مجال ، لأن العقل البشرى ، عاجز عن أن يدرك قيام الموتى من قبورهم شمساً غرباً ، ينفضون التراب عن رؤوسهم ، إلى ربهم ينسلون

أما أنا فأعترف للناس أجمعين بأن عقلى عاجز عن إدراك حقيقة البعث على هذا الوجه ، وإن آمنت به ، فإن كان عقل الأستاذ خشية ، يستطيع أن يقيم لنا الأدلة العقلية والعلمية على ذلك ، فليفضل ، فتحن له من الشاكركين ، وبهديه من المهتمين

ولكن كيف يستطيع ذلك ، وهو ينادى بأعلى صوته أنه مؤمن بالله وبرسوله إيماناً ساذجاً كإيمان المجائر ، ولو كان في استطاعته إقامة الأدلة العقلية على البعث ، لما كان إيمانه كإيمان المجائر ، ذلك الإيمان التقليدى الذى يزلزله أدنى شك ، ويزعزعه أقل ريب

« والحرمات قصاص » وليس الأستاذ خشبة بمجزي أن أكابله مثل هذا الشتم صاعاً بصاع ، إن نثرأ فنثر ، وإن شعراً فشعر ، ولكني كما قلت آنفاً أكره النزال في حومة لا يخرج منها الغالب إلا وهو ألأم من المغلوب

أنا لا أطلب من الأستاذ خشبة ، ولا من غيره ، أن يترك إيمانه الساذج ، إلى إيمان تسايير الحكمة ، ويؤيده العقول ، فإن ذلك مني فضول . كما أني لم أكتب رسائل التعليقات لدعوة الناس إلى وحدة الوجود ، بل كل ما هنالك أني قرأت كتاب التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك ، فعلقت عليه بعض ما عثدي في التصوف من معلومات ، وأنا خاضع لكل رد يأتي بالحق ، لا بالباطل . أما التغيير والتبديل ، بقصد التكفير والتشنيع ، فشيء لا يرتضيه حتى الكفر المركب ، فضلاً عن الإيمان الساذج ، والسلام على من ترك هوى النفس ، ولم يقل إلا الحق .

معروف الرصافي

بغداد

وإلى القراء بعض فقرات مما كتبه الرصافي عند كلامه على البعث ، قال :

(وإن كان البعث مما لا تدركه العقول ، فإن الإيمان به معقول ومقبول ، ذلك لأن الغاية المقصودة منه ، هي اعتقاد المؤمن بيوم الدين ، الذي هو يوم الحساب والجزاء ، ذلك اليوم الذي يجازي فيه المحسن ، ويه قب السي . ولا ريب أن الإنسان إذا كان مؤمناً بيوم الدين إيماناً صادقاً ، اجتنب الشرور ، وكف عن العدوان ، وبذل الجهد في الأعمال الصالحة ، وهذا هو كل ما تريده جميع الأديان في كتبها السماوية ، وجميع الحكومات في قوانينها الأرضية » . قال : « وعليه ، فلا حرية في أن الإيمان بالبعث ، يكون من أهم الوسائل المؤدية إلى السعادة في الحياة الدنيا ، لأن المؤمن به ، وبيوم الجزاء ، يستحيل عليه عقلاً وعادة ، أن يرتكب الشرور ، وأن يعمل غير الصالحات ، ومتى كُتب كذلك ، كان صالحاً للحياة الاجتماعية بكل ما اشتملت عليه من حقوق وواجبات »

ثم قال : « وتالله إنني لا أرى في الوسائل العلمية والأدبية ، وسيلة تؤدي إلى إصلاح الإنسان في حياته الاجتماعية ، أنفع ، ولا أنجع ، ولا أروع من إيمانه بيوم الجزاء المترتب على إيمانه بالبعث ، ولا ريب أن الفضل كله في ذلك ، راجع إلى دين الإسلام القائل بالبعث دون غيره من الأديان »

هذا ما قاله الرصافي في رسائل التعليقات من الكلام الذي أعرب فيه عن كل هذه المعاني السامية ، ولكن الأستاذ خشبة يقول إن الرصافي لا يرى للبعث معنى فإننا لله وإنا إليه راجعون

أنشدك بالله أيها القاري الكريم ، هل في هذا الكلام ما يدل على أن قائله كافر بالبعث ، وهل يجوز للأستاذ خشبة أن يشتم الرصافي هذه الشتيمة المفكرة ، ويتهمة بأنه لا يرى للبعث معنى

من الجائز شرعاً ، أن أقابل هذه الشتمات بمثليها ،

روائع الأدب اليوناني

في

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

بقلم الأستاذ دريني خشبة

يصدر قريباً

يطلب من مجلة الرسالة

الثنى ٣٠ قرشا عدا أجرة البريد